المحيط الصاخب

(قصة اجتماعية)

بقلم سمير محمد

قال صاحبي عبد الرحمن وهو يرتشف رشفة من قدح الشاي :

أراك ياصاحبي قد عنيت أخيرا بكتابة القصة المستمدة من صميم المجتمع ، وفي الواقع أن هذا النوع هو المطلوب في هذه الأيام التي نرى فيها بوادر نهضة إصلاحية ، ونرى فيها مباضع الاجتماعيين تعمل في جسم الأمة لإبرائها من جراحها. فالقصة لها أكبر أثر في الإرشاد إذ أنها نتيجة عرض دقيق ومرآة صادقة لما يدور في صدور الناس من أحاسيس ، وفي النهاية هي خير واعظ بنتائجها الصحيحة .

سكت صديقي سكتة قصيرة ، ولم أكن أعهد في صديقي أنه يهتم بالأدب قط ، فقد تزاملنا أيام الدراسة الثانوية ثم افترقنا هو إلى قريته وأنا إلى استكمال دراستي . وانقطعت صلاتنا زمنا طويلا حتى تلاقينا أخيرا ومصادفة عند أحد أصدقائي في الريف وكان من بلدة صديقي ، فدعاني عبد الرحمن لقضاء يومين في ضيافته فقبلت فقد كنت مشوقا إلى تعرف أخباره وتجديد صداقته التي كنت أعتز بها ، لما هو عليه من دماثة الطبع وحميد السجايا .

واستأنف صديقي حديثه فقال :

"أعلم جيدا ياصديقي أنك في شوق إلى معرفة أخباري ويعز علي أن أقصر في إجابة رغبة لك ، سأقص عليك قصتي عساك تجد فيها مادة طيبة لإحدى قصصك الاجتماعية التي كنت أتتبعها باهتمام ، وعسى أن يجد فيها الناس عبرة وعظة .

اعتدل صديقي عبد الرحمن وبدأ يقص قصته فقال :

" قضت والدتي وأنا في الخامسة من عمري وتركتني وشقيقتي التي تصغرني بسنتين نتلمس العطف عند الناس فلا نجده بعد أن فقدنا العطف والحنان بفقدانها . وكان والدي رجلا ضعيف الارادة لا يهمه شيء في الحياة أكثر من ابتعاده عن كل ما يقلق باله ويعكر صفوه ، وفي سبيل ذلك لا يبخل حتى بأولاده . وكان أن تزوج بأخرى بعد وفاة والدتي

بأشهر قليلة، وأرسانى إلى المدرسة، فأتممت دراستى الابتدائية والثانوية، وكدت أتم دراستى العالية وكاد أبى يوافق على ذلك لولا أن وقفت زوجته عقبة كؤودا فى سبيل ذلك. فرحلت إلى بلدتى هذه التى تراها، أباشر زراعة الأرض وأعمل جنبا إلى جنب مع الفلاحين فى المزرعة واستمع إلى أحاديثهم الساذجة وأقاصيصهم الخيالية البريئة. وكنت أجد فيهم وفى القرب إلى الله وزيارة قبر أمى خير سلوان فى حياة الوحدة التى أحياها.

ولم تكن القاهرة بزخارفها وملاهيها وأضوائها لتجتذبنى فقد كنت أسافر إليها على مضض عندما يطلب إلىّ والدى ذلك حتى أؤدى له مهمة أو أنجز له طلبا. فقد كنت أمقت المدن وما فيها بعد أن قاسيت على يد امرأة أبى المتمدينة ما قاسيت، وبعد أن رأيت من قسوتها أشد ألوان العذاب. وكان الدافع الأكبر الذى يغرينى بالزيارة رؤيتى لشقيقتى إلهام فهى الوحيدة التى كانت تحبنى فى هذه الحياة وتعطف علىّ وتتمنى لو أعيش إلى جانبها كما كانت لا تفتأ بين الحين والحين تكاتبنى لتستطلع أخبارى وتقصى الكثير من أحوالى.

* * *

ظللت أعيش بين بدائع الفنان الأعظم، استمتع بما وهب الله الريف من فتنة وجمال، فأقضى يومى بين هذه المفاتن لا أحس تعبا فى العمل ولا إرهاقا فى الحياة. كان يومى يبدأ فى ساعة مبكرة جدا عند ما أحس بحركة الفلاحين وهم يسيرون مع بهائمهم الى الحقل وهذا ينادى على ذاك طالبا منه أن يعيره بقرته أو دابته فيجيبه الآخر الى طلبه فى ترحيب وكرم. ويسيرون الى الحقل تلوح على وجوههم علامات الايمان العميق والرضاء بما قسم المولى لهم من رزق، فغنيهم حامد لنعمة الله، وفقيرهم شاكر لا يطلب إلا رضاه، ثم ترسل الشمس ضوءها الذهبى تحييهم، ويزقزق الطير مرحبا بهم، فتشرق نفوسهم وتنشرح صدورهم، وأحس فى أعماق نفسى بجمال الحياة، وعظمة الوجود، وأرى فى الريف الجنة التى وعد الله بها عباده المخلصين. فارتدى ملابسى وأؤدى واجبى نحو الخالق وأخرج الى الحقل أتوغل فيه واستنشق بقوة ملء رئتى الهواء النقى المشبع برائحة الطبيعة الساحرة فيدب النشاط الى جسمى وأقبل على العمل فى نشوة وفرح وأنا أردد: ما أجمل الحياة.

ومن بعيد تصل الى سمعى أناشيد الفلاحين الجميلة منغمة بنغم رائع تردده أصوات قوية كلها فتوة ورجولة، وهم فى جلابيبهم الزرقاء زرقة السماء مقبلون على أعمالهم فى الحقل بروح الهمة والاستبشار فرحون بما منّ الله عليهم به من محصول، متعاونون مع بعضهم فى السراء والضراء متضامنون فى فرحهم وشقائهم متحدون فى أفراحهم وأحزانهم.

فاذا انقضى اليوم رجع الفلاحون من الحقل زرافات ووحدانا وهم يحملون أدواتهم فيدخلون بيوتهم مع بهائمهم وأهلهم ليتناولوا جميعا طعام العشاء. ثم يخرج الرجال الى منتداهم

تحت شجرة الجميز الكبيرة حيث يتعاطون أكواب الشاى الاسود ، فاذا انفض سامرهم أتوا الى منازلهم ليريحوا أبدانهم قليلا حتى الصباح فيستأنفوا برنامجهم من جديد .

كنت وسط هذا الجمع معلما وتلميذا ، أبذل جهدى فى سبيل تنويرهم بما تعلمت ، وأغتنم الفرصة لأسترشد بآرائهم القيمة وتجاربهم المفيدة ، وأنا بين كل هذا وذاك سعيد وراض .

* * *

وذات يوم كنت أجلس وسط الفلاحين فى الحقل أراقبهم وأعمل على إدخال السرور على قلوبهم النقية واذا بخفير من خفراء القرية يدعونى لتلبية نداء التليفون بمكتب العمدة ، فذهبت مسرعا واذا بإلهام شقيقتى هى المتكلمة ، وهى ترجونى وتستحلفنى بأمى رحمها الله . أن أزورهم فى القاهرة لأحضر عيد ميلادها ، وتناشدنى أن أحضر الى القاهرة كى تشعر حقا بتلك المناسبة .

لم أملك ساعتها إلا إجابتها الى ما رغبت فيه ، وهكذا فهمت هى منى وأنا متردد وبين موافق ورافض وقد صور لى الخيال أمى تقف أمامى وتشير الى أن اذهب .

لن أطيل فقد سافرت الى القاهرة فقابلتنى إلهام على المحطة وكان الفرح بلقائى يتبدى فى كل حركاتها ، وكانت هى الوحيدة التى استقبلتنى بيشاشة ، فقد لقيت من أهل المنزل نفورا واشمئزازا وزراية .

تحملت ما لقيت فى سبيل شقيقتى وحتى لا أغضبها يوم عيد مولدها . ولما حل المساء رأيت المنزل قد انقلب رأسا على عقب وازدان بالزهور والرياحين ، وأخلى البهو الكبير وأعد الصالون ، وبالجملة فقد بدا البيت كأنه شعلة من نار يتلألأ بالأنوار الوهاجة الساطعة والأضواء القوية الملتهبة التى تشع على المدعوين والمدعوات الذين بدأوا يفدون على المنزل والذين أخذوا يخاصرون بعضهم البعض ، هذا يراقص زوجة ذاك وذاك يراقص شقيقة هذا . وفعل "الكوكتيل" مفعوله فى رءوس المدعوين فمايل هذا على ذاك واعتنق الشاب من فرط سكره المقعد وجعل يغازله كأنما هو حسناء ، وبالجملة كان الحفل أكبر شاهد على مصرع الأخلاق والأعراض . وكان أبى وزوجته يشاركان المدعوين تهريجهم وضجيجهم وصخبهم فتألمت وتكمصت على عقبى محسورا أنشد هواء نقيا من إحدى الشرفات البعيدة عن الضوضاء .

استلقيت على مقعد طويل وألقيت برأسى الى الخلف ، وأطبقت عينى على مئات من الفكر ، والصور الحليمة التى رأيتها تعدو أمامى متزاحمة كسكان مدينة خافقة ، أخذ منهم الرعب فانطلقوا هاربين .

تذكرت إلهام وقلت فى نفسى : أين هى ؟ فقد اختفت من بين ذاك الجمع الحافل ولم أعد أراها . واذا بها تفتح الباب بهدوء ، وتتلفت بجسدها الأنيق الرشيق وهى تترنح من السكر ، ووجهها الشاحب الحزين يتقسمه فرط الألم . فهرعت اليها وكلمة "أنت؟" تندفع من فمى سريعة ملهوفة كطفلة طروب انطلقت إلى أترابها تلعب ، وأخذتها إلى وضغطتها

كأنما أحميها وأجاستها ... وحدقت فيها بعينين فيهما لهيب أزرق خافت ، فتفتحت شدقيها عن ضحكة خشنة أشبه بالحشرجة ، ولبثت صامتة كليل أخرس فى صحراء مهولة ... ووثبت دمعتها تصرخ بصمت حين اختنقت الكلمات فى فمها ، فعصر قلبي بكاؤها حتى كاد أن يسحقنى وقلت أحدثها ، وأنا أجر الكلمات من فمى كسرب من عجائز مقعدات فانيات :

— هذا الأب الباغى ... هذه الزوجة المستهترة ... وهذا الفجور والعهر ... وهذه المذابح الأخلاقية ... لقد رضيت بما قسم لى الله وعشت فى الريف هانئا بين النفوس الشريفة والقلوب الطاهرة ... بعيدا عن هذه الأنواع المنحطة من البشر ... بعيدا عن هذه الوجوه الكالحة ... والقلوب الموصدة ... لماذا ؟ لماذا طلبت الىّ أن أحضر وأرى بعينى ما تشمئز منه النفوس الحساسة وغير الحساسة .

ووثبت من مجلسى كالقذيفة وانطلقت أحوم فى أرض الشرفة كنمر فتىّ مقطوف نغ ، ثم التفت اليها بغتة ، وهتفت بها بقسوة :

— وأنت ؟

ففهمت ، ونكست رأسها الجميل كعلم مهين ، ولاكت الكلمات ببطء قائلة :

— لقد أفنيت نصف وجودى كيا أحمل اليك النصف الآخر ...

فولولت صائحا :

— انك تمزقيننى ... انك تنهشين قلبى ... تكلمى ... أوضحى .

فقالت بأسى : لقد تحطمت أنا أيضا ... لقد فقدت كل شىء ... لقد فقدت شرفى ... تحت ستار الاغراء بالزواج ... وكان الجانى هو شقيق زوجة أبى ... هذه الليلة ... وقد هيأ لى أن أتناول كأسا من السم الذى يشربونه فتعاطيت الكأس ولم أدر الا وأنا مضرجة فى دمائى أحاول جاهدة أن أتنبه الى نفسى فلا أستطيع ...

انطرحت على أحد المقاعد بجدار يتداعى ، ورانى الصمت علينا حتى لكأنه صفائح من فولاذ فقامت الهام واقتربت منى ، وهى لاتكاد تعى من أنا أومن هى ، فالتفت اليها ، فاذا وجهها كساحة حرب بعد المعركة !

... فهمست لى ولصوتها عمق العدل وهدوءه :

— لماذا لم تأخذنى معك ... لماذا تركتنى هنا ... بين أحضان الجريمة والفساد ... لماذا ... ولماذا لم تنقذنى فى بادئ الأمر من هذا الجو الموبوء ... من هذا المحيط الصاخب ... أعرضت عنها وقمت الى آخر الشرفة وأنا أقول :

— ترى ... هل بعد هذا موضع لألم ... أو لخبال ، أو لجنون ! ؟ ...

ان دماغى ليدور ويدور حتى ليكاد ينفجر ... وان أعصابى لتتوتر كأنما فى غضبى اشتد عليها اللظى والأسار ، وان كيانى بأسره ليستحيل الى جريمة هائجة ولكن مقعدة ... يا لرحمة الله ! ...

أنت أيتها الملاك الطاهر ... يعتدى عليك شيطان من مردة المدنية الزائفة ... الا ما أمتع دوى الطبل يصخب مع أنين الناى ... بل ما أرشق باقة الزهر فى كومة الأقذار ... وما آنق حزمة العوسج فى الزهرية الرقيقة ! سخف وعار ، وجنون ..."

اقتربت منها فرأيت أشلاء الألم السامى ترافص فى مقلتيها : فأخذتها الىّ كوحيد لى عليل أعانقه ، فأنفخ فيه من روحى .

التزمت الصمت لحظة ، ثم التفت إليها ، فرأيت فى عينيها خبرا جديدا ، فيهما أمل رشيق ينهض من بين الأشلاء والدماء يقول :

— إذن فاهرب الى الريف ... الى أبعد من ذلك ... الى بلاد سحيقة ، الى غير هذه الأرض... أستحلفك ياأخى بحق أمنا الطاهرة رحمها الله... أنقذ أختك المسكينة ، أختك البريئة... اختك التى جنت عليها المدنية الغادرة .

وأجهشت فى البكاء ، وتعلقت بى وأنفاسها تعصف وفى وجهها قداسة رائعة ، وفى عينيها بطولة قوية ، ورفعت الى عينين ملأهما الاستسلام وقالت :

— أسترحمنى ... أسترضى أن تأخذنى معك ... بربك أنقذنى يا عبد الرحمن ...

* * *

انقضى الليل وانبلج النهار ، فقمت من فراشى ووقفت بين يدى الله أسأله الهداية والتوفيق ... ثم ارتديت ثيابى وطرقت غرفة إلهام فوجدتها فى كامل هيأتها ومعها حقيبتها فأخذتها معى وغادرنا الجو المسموم ... غادرنا المحيط الصاخب .

وفى هذه القرية حططنا رحالنا ، وعكفت إلهام على خدمتى والعناية بشؤونى وظلت على عهدها هذا حتى خطبها ابن عمى "فاضل" وكان قد بلغه من زوجة عمى خبر إلهام ، فتقدم إلىّ فى رجولة فذة و إخلاص نادر ... ورجانى أن أقبله زوجا لها ...

* * *

وها قد مرت سنوات ثلاث أنجبت فيها إلهام ولدا هو قرة عين أبيه وأمه وهى لا تفتأ تردد على مسمع ولدها أن يقنع بحياة الريف الطاهرة ، وأن يبتعد جاهدا عن المدينة ... وما تحويه من دنس وسخف وعار ... م٥

سمير محمد

طبعت هذه المجلة بالمطبعة الأميرية ببولاق
فى يوم ٢٤ من محرم سنة ١٣٦١
(٣٠ من يناير سنة ١٩٤٢) م٥
مدير المطبعة الأميرية
محمد بكرى

٣٥٠٠٠-١٩٤٢-١٠٤٧١ [illegible]